International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume 6, Issue 3, 2024

Models of Social Relationships in Ancient Algerian Visual Art

Dr. Hamza Triki

Received: 5/6/2024
Revised: 9/7/2024
Accepted: 19/8/2024
Published online: 23/9/2024

* *Corresponding author:*
Email:
hamza.triki.etu@univ-mosta.dz

Citation: *Triki. H. (2024). Models of Social Relationships in Ancient Algerian Visual Art. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 6(3).*
https://doi.org/10.65811/635

©2024 TheAuthor(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license.
https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online 3006-7286

Abstract: It is well known for the historical and cultural path of Algeria, the inclusion of the sane man who settled in it since the prehistoric period of its three phases (paleolithic, intermediate, modern) in the development of his skills and creative artistic abilities, which began to begin with the stability that resulted in interest in the fields of agriculture, grazing and the construction of huts that emerged from several cities that served as the definitive proof among the public of researchers and scientists that the ancient man had adapted early to the environment, he practiced The ancient man has been the art of rock photography for thousands of decades, and can be classified exactly within the Mesolin era where he was found inside the caves and on its walls many drawings and inscriptions that have lived through his time and place.

Keywords: Rock art; Roman art; Prehistoric man; Algerian fine art.

نماذج من العلاقات الاجتماعية في الفن البصري القديم بالجزائر

د. تريكي حمزة

الملخص: لا يخفى على العارفين بالمسار التاريخي و الثقافي للجزائر تدرج الإنسان العاقل الذي استقر بها منذ عصور سالفة خاصة فترة ما قبل التاريخ بأطوارها الثلاثة (العصر الحجري القديم، الوسيط، الحديث)؛ في تنمية مهاراته و قدراته الفنية الإبداعية و التي بدأت بوادرها مع الاستقرار الذي ترتب عنه الاهتمام بمجالات الزراعة و الرعي و بناء الأكواخ التي انبثقت عنها عدة مدن كانت بمثابة الدليل القاطع لدى جمهور الباحثين و العلماء على أن الإنسان القديم قد تكيف مبكرا مع البيئة، لقد مارس الإنسان القديم فن التصوير على الصخور منذ آلاف العقود التي خلت، و بالضبط يمكن تصنيفه ضمن العصر الميزوليني أين عثر داخل الكهوف و على جدرانها العديد من الرسوم و النقوش التي عاصرت زمانه و مكانه.

الكلمات المفتاحية: فن صخري، فن روماني، إنسان ما قبل التاريخ، فن جزائري.

مقدمة:

توضح لنا الاكتشافات الأثرية المتعاقبة مدى التطور الفكري للإنسان القديم بعدما أضحى يميز ما بين ضرورياته المعيشية و حاجياته المعنوية، و هو ما نلمسه أكثر مع الإنسان القفصي الذي ساهم بشكل بليغ في إثراء الحياة الفنية بشمال إفريقيا؛ ما قبل التاريخ، الأمر الذي تبرزه مختلف الأدوات و القطع الأثرية المكتشفة خاصة ما تعلق بعظام الحيوانات و ما تحمله من تشكيلات فنية ذات ألوان معبرة، مما لا يترك مجالا للشك عن مدى امتلاكه لمتطلبات التذوق الجمالي في عصره.

إن هذا التطور في المدارك العقلية لدى إنسان ما قبل التاريخ له الأثر البالغ في ترسيخ التاريخ البيئي و الجغرافي للمنطقة من خلال النقوش و الرسومات المتباينة التي تعتبر كسجل تاريخي فني شبه متكامل، اختلفت فيه التقنيات التي نتجت عنها أعمال فنية بشكلها النهائي خاصة ما وجد بالأطلس الصحراوي من رسوم شكلت عليها مختلف الحيوانات التي عاشت بالمنطقة خلال فترة خلت من الزمن و التي انقرض معظمها بفعل التأثيرات البيئية و المناخية على غرار: التماسيح، الأسماك.....، بالإضافة إلى كائنات أخرى. (محمد البشير، ٢٠١٣)

تعتبر هذه الاكتشافات المادية بمثابة الكشف الجوهري عن التوجهات الفكرية و الفنية للإنسان القديم الذي عبر عن أفكاره بواسطة تشكيل الأواني الفخارية و الرسم عليها، مضافة إليها النقوش على العظام و الصور الفنية الرائعة التي أرفقها خاصة على بيض النعام؛ و هو الاكتشاف الذي توصل إليه فريق من المنقبين و العلماء بمنطقة ورقلة أين تم العثور على صدفة كاملة لبيضة النعام عليها رسم جميل لكلا من حيواني الظبي و بقرة، و تجدر الإشارة هنا إلى الاستخدامات المختلفة لقشور بيض النعام و التي تمت صياغتها كذلك على شكل حلي للزينة حيث تعتبر من أبرز أوجه الصناعات الأصلية بالشمال الإفريقي ما بعد الحضارة العاترية.

ـ أولا: المجال الجغرافي للأعمال الفنية الصخرية العريقة:

نتطرق في مايلي إلى أبرز المدن الجزائرية التي عثر بها على أهم اللوحات الصخرية حيث كانت بمثابة السجل التاريخي و الفني للمسار التاريخي و الثقافي للجزائر منذ القدم، و قد شغلت هاته الاكتشافات بال العديد من الباحثين و علماء الآثار على الرغم من قلة الاهتمام بها على المستويات المحلية و الوطنية وهذا بانعدام الترويج السياحي و كذا تشجيع و دعم الأبحاث العلمية التي تتعلق بها.

١/ البيض:

إن الرسوم الصخرية المكتشفة في عدة مناطق من مدينة البيض كانت بمثابة أحد الإشارات إلى ضرورة التعمق في تاريخ المنطقة و الدفع بعجلة البحث العلمي و التنقيب في مكنونات طبيعة المنطقة و أغوارها التاريخية، و تعد بلدية "الغيشة" من أهم المحطات الأثرية التي عثر بها على ما يناهز الأحد عشر موقعا أثريا تحاكي رسومات بدائية، و نذكر منها مواقع: "كاف المكتوبة- عين صفصافة- عين الخطارة- الروراو- العنبة"، هاته الأخيرة التي أكتشفت بها أحد أجمل التشكيلات الصخرية خلال سنة ١٨٩٧م على جرف رملي عريق أرخ من خلاله الإنسان على عراقة المنطقة.

كما اكتشفت مواقع كثيرة لاكتشافات فنية صخرية بمنطقة "بوسمغون" عبرت عن تاريخ الإنسان القديم بالمنطقة، حيث حملت النقوش الصخرية و التي أوجدت على صفائح و كتل صخرية على الطريق الرابط ما بين "الشلالة" و "بوسمغون" رسوم لحيوان الغزال و نقوش صخرية لعدد من الحيوانات الأخرى، لكن أغلبها أتلف بطريقة مباشرة و غير مباشرة بتأثيري الإنسان و العوامل الطبيعية على التوالي بينما حافظت الرسوم الصخرية بمنطقة "حاسي بالقوارد" على جماليتها و هي عبارة عن تصوير لأحد

مشاهد صيد حيوان الفيل الذي عاش بالأطلس الصحراوي في تاريخ سابق كما أشرنا إليه سابقا. (Lefelver, 1972)

كذلك نجد من بين أهم المحطات الصخرية "كبش بوعلام" (١٨٩٨)، و الذي يعتبر من بين الرموز و النقوش الأثرية التي نالت مقامها العالمي ضمن المواقع الأثرية المصنفة؛ و هو عبارة عن نقش صخري لكبش ضخم في وضعية الوقوف بحوالي علو المتر و ثلاثين سنتيمترا و عليه تفصيلات جزئية لمظهر الحيوان، يتقدمه رسم لإنسان يكاد يخلو من تفاصيل الأطراف و ما إلى ذلك من تفاصيل الشكل الخارجي للإنسان.

٢/ الجلفة:

كانت مدينة الجلفة و هو الاسم الذي أطلق على المدينة في عهد الأتراك من بين المحطات الهامة في تاريخ الاكتشافات الفنية الصخرية بالجزائر و هو ما تعزيه الرسومات الأثرية العديدة و الموجودة بمختلف تراب الولاية، نستذكر من أهمها الرسوم الصخرية المكتشفة بعين الناقة سنة ١٩٧٦م الكبيرة للجاموسين القديمين و التي تتجاوز مساحته أكبرهما المترين، بالإضافة إلى نقوش صخرية أخرى عبرت عنها منحوتة "العاشقين الخجولين" بالإضافة إلى مكتشفات فنية أثرية أخرى بمنطقة "حصباية" حيث احتوت على تشكيلات جميلة لأنواع من الحيوانات التي سادت المنطقة في فترة ماضية.

الشيء الملاحظ في النقوش الصخرية بالمنطقة عموما هو كثرة تجسيد حيوان الفيل الذي عثر على تخطيطاته الفنية على عديد المناطق الصخرية من المدينة و التي نذكر منها: عمورة (قرب مسعد) ، (Rabhi، Aberkane، و Bellahreche، ٢٠١٦) ثنية الميزاب (جنوب الجلفة)، و خنق الهلال، و إلى جانب رسومات الفيل نجد كثيرا من الرسوم البدائية لعدد معتبر من الحيوانات منها المتوحش و منها الأليف على غرار : الخيول- النعام-الكبش- وحيد القرن- الأسد.

٣/ تبسة:

تزخر تبسة أو كما أطلق عليها الرومان "تيفاست" بموروث حضاري و إنساني عريق عراقة التاريخ و هو ما يتراءى للعيان من خلال المحطات الأثرية الجمة التي تزخر بها المنطقة و المتمثلة أساسا في الرسومات و النقوش الصخرية المترامية على مختلف مساحات المنطقة، و إن دلت هذه التحف الفنية فإنما تدل على قدم استيطان الإنسان المنطقة منذ حقب غابرة و هو ما من شأنه الرفع من مستوى الترويج السياحي الذي تفتقده المنطقة على الرغم من كونها أحد أهم الولايات الحدودية و التي لها علاقة قوية بما جاءت به الحضارة القفصية و التي تعتبر من أقوى الحضارات في الشمال الإفريقي.

و من بين أهم المناطق التي مارس بها الإنسان القديم مختلف الصناعات و الفنون الصخرية نجد منطقة "الماء الأبيض" بالإضافة إلى رسومات وجدت على جدران الكهوف بالمنطقة الجبلية "قسطل" بعين الزرقاء حيث عبرت عن مدى براعة الإنسان في تصوير حياته اليومية بمختلف أطوارها، و التي تطورت هي الأخرى و عرفت استمرارا من الحسن إلى الأحسن (قبل اكتشاف الكتابة الليبية)، مضافا إلى ذلك كل من مناطق "تازبنت" بالشريعة، و "الدير" التي عثر بها على بقايا أوان فخارية مزينة برسومات محلية بدائية؛ و كذا رسوم "الداموس الأحمر" القريبة من جبل "الدكان".) علي(1994 ,

دون أن ننسى ما جاءت به الحضارة العاترية و التي تعتبر من أقدم الحضارات على غرار الحضارة القفصية و الوهرانية، و التي تعود الى حوالي ١٢٠٠٠ سنة ق.م حيث احتفظت المنطقة بعدد

كبير من الأشكال الفنية منها الرسوم و النقوش الصخرية و الأواني الفخارية المزخرفة ببراعة تبرز لنا مدى مهارة فناني الحضارة العاترية، (أحمد و مها، ٢٠٠١) و هي نفس الأشكال التي عثر عليها بمناطق "واد هلال"، "الصفصاف" و التي جاءت في معظمها بتقنيات مبتكرة جعلت منها مقاومة للتلف و العوامل الطبيعية وهو ما يتجلى لنا من خلال القطع الفنية المحفوظة خاصة بالمتحف العمومي بمدينة تبسة.
لقد وجدت أيضا كتابات و رسوم صخرية عديدة في ولايات الوطن نترك المجال أمام الباحثين و أهل الاختصاص في التأريخ و علم الآثار لها و الحديث أكثر عنها و نذكر منها: موقع خنقة الحجر الواقعة ببلدية "سلاون عنونة" بقالمة و هي عبارة عن صخرة عليها نقوش و كتابات صخرية قاربت المئتي نموذج، زيادة على هذا نجد موقع "كولمناطا" الأثري بسيدي الحسني بمدينة تيارت و الذي عرف أيضا بإنسان كولمناطا (٥٢٥٠/٦٣٣٠ ق.م) و التي اكتشفت خلال خمسينيات القرن الماضي، كما تعد ولاية النعامة من بين المحطات التي اكتشفت بها رسوم صخرية تواجدت أغلبها بمنطقة "تيوت"، علاوة على هذا توجد محطات أخرى ذات أهمية في كل من بسكرة و ورقلة و الأكيد أن الكثير من مخلفات الإنسان البدائي في الجزائر لم تكتشف نظرا لعدة عوامل أهمها نقص الخبرة المحلية و كذا شساعة الإقليم و العوامل الطبيعية القاسية في المساحات الكبرى للجنوب.

ـ ثانيا:الحياة الاجتماعية للإنسان القديم من خلال جداريات الطاسيلي:

عرف عن الطاسيلي كرقعة جغرافية بأنها منطقة جبلية لها ارتفاع شاهق في وسط الصحراء الجنوبية للجزائر، حيث تعتبر من بين الأماكن الغنية بالنقوش و الرسومات الصخرية التي أبدع في تشكيلها الإنسان القديم (إبراهيم العيد، ٢٠٠٩)، و قد أكتشفت هذه الرسومات في القرن التاسع عشر و التي كان مكتشفها الأول "جبرين اق محمد اق مشار اق بوبكر" و هو من السكان الأصليين للمنطقة لكن شجع و استغلال "هنري لوت"له بكونه خبيرا بالمنطقة جعل منه ينسب هذا الاكتشاف لنفسه في كتاب ألفه سنة ١٩٦٥.

لقد عرفت منطقة الطاسيلي الواقعة جنوب الجزائر أو ما يعرف باسم "الطاسيلي ناجر" وهو مصطلح مركب من كلمتين (الطاسيلي) والذي يدل مفهومها على سلسلة الجبال التي يغطيها السواد، وكذا كلمة (ناجر) التي تعني الرأس الأقرع أو الجلد المسلوخ، وفي تسميات أخرى نجد مصطلح "أزجر" الذي يدل على بحيرة أو نهر، (لخضر، ٢٠٠٩/٢٠١٠) ولقد شهدت المنطقة عديد الحركات التكتونية خلال العصور الجيولوجية ما انبثق عنه تضاريس مختلفة كان للعامل الطبيعي الأثر الجلي في نحت معالمها وهو ما قسمه الجيولوجيون إلى ثلاثة أقسام كالأتي : الطاسيلي الداخلي، الطاسيلي الوسطي و الطاسيلي الخارجي (نادية، ٢٠٠٥/٢٠٠٦)

وقد شدت التضاريس الغريبة والباهرة في تشكيلاتها الإنسان القديم وهذا لما كان لها من الأثر الجمالي وكذا الاجتماعي الذي يحتاجه الإنسان القديم في حياته الاجتماعية والتي امتازت بالقسوة فاتخذها مسكنا له حيث راح يبحث عن سبل التعبير بعدما تمكن من التأقلم بين مختلف التضاريس والعوامل المناخية ومن هنا بدا البحث عن أساليب جديدة للصيد والإقامة.

توحي لنا الاكتشافات التي مني بها علماء الآثار عن مدى تفوق "الإنسان الماهر" وهي التسمية التي أطلقت على الإنسان القديم في تشكيل ابسط أدوات الصيد واعقدها من حيث التصميم والدقة على الوصول إلى الهدف خاصة ما تعلق "بالقواطع" وهي الأدوات الحادة المخصصة للصيد أو الحفر.

أما من ناحية الأساليب فقد قسمت الرسوم الجدارية بالطاسيلي إلى خمس مراحل،(H., 1984) وقد راعى هذا التقسيم عدة معايير مختلفة منها الاعتماد على ظهور أو اختفاء حيوانات معينة وكذا اختلاف التشكيلات من حيث الألوان وأسلوب تصميمها.

١/ مراحل الفن الصخري بمنطقة الطاسيلي:

* نستعرض هذه المراحل حسب الفترات الزمنية المتعاقبة بالمنطقة و هي كالآتي:

أ/ مرحلة الجاموس (Bubalin)

وقد تميزت هذه المرحلة ببروز نقوش ذات ألوان زاهية وحركات متناغمة تعبر عن واقع حال فترة الصيد آنذاك وسميت أيضا "بمرحلة الصيد" و الملاحظ غلبة أحد أنواع البقريات (الجاموس)؛ نظرا لتمييزه كأحد أقدم الأنواع التي تعتبر كأحفورة من نوع إفريقي وقد جسدت النقوش العديد من الحيوانات الإثيوبية العملاقة التي كانت تعيش بالجزائر ونذكر منها على سبيل المثال: الجاموس، الفيل، وحيد القرن، الزرافة وحتى التمساح.(Malika, 2009)

بالإضافة إلى الحيوانات المختلفة جسدت هذه المرحلة ملامح الإنسان البدائي الذي ظهرت عليه القوة من خلال تجسيده في حجم كبير إضافة إلى شعره المسدول والذي ينم عن ملامح أوروبية في مجمله من خلال الألوان المستخدمة، وقد ظهرت أجسامهم مغطاة العورة مع حملهم لمختلف أدوات الصيد مثل الأقواس و الرماح الحجرية الرؤوس، ومن خلال مختلف الرسومات و النقوش يتبين لنا مدى براعة الإنسان القديم في تطويع الخامات و توظيفها في تعبير فني جميل عبر من خلاله عن مشاهد للصيد؛ و الأكثر من ذلك دلالتها البليغة التي توحي لنا تكوينه لعلاقات اجتماعية تبدو للمشاهد من النظرة الأولى كأنها من أوائل مراحل التنظيم الاجتماعي.(Davidson, 1966)

ب/ مرحلة الرؤوس المستديرة (Les Têtes rondes)

لا شك أن هاته المرحلة من بين أهم المراحل التي حيرت علماء الآثار في تفسيرها، نظرا لما تحمله من رسومات و نقوش صاحبت لوحات الرؤوس المستديرة و التي هي عبارة عن خطوط حلزونية منقوشة على الصخور المنتشرة بمختلف مساحات الصحراء، و التي احتوت كذلك على نقوش جسدت الجبال التي استعملها الإنسان الماهر في نشاطاته اليومية من صيد و ما إلى ذلك من تدجين للحيوانات التي أدرك أن منها الأليف؛ بالإضافة إلى رسومات تعبر عن كائنات أسطورية. (بعلي، ٢٠٠٨)

اتسمت هذه المرحلة بالنقوش الزاهية الألوان والتي كانت أكثر دقة وبمحتوى جديد يعبر عن مرحلة ثانية من مراحل فن الطاسيلي،وقد جسدت الإنسان بحجم متناسق على غرار المرحلة الأولى والتي كان حجم الإنسان فيها كبيرا وحملت هذه النقوش مظاهر الرعي وكذا الاحتفالات.

ظهر جليا استخدام الألوان النقية والزاهية في تراكيب الإشكال حيث ظهرت مزواجة الألوان الأحمر الاجوري والأخضر وكذا الأصفر الحديدي و الأحمر مع الرسومات الدقيقة خاصة من حيث تفاصيل الجسم فقد جاءت الأجساد عريضة المنكبين وطويلة العضد مع راسي بيضاوي الشكل مع باقي الجسم، وقد قسمت الأشكال البشرية حسب تفاصيل الجسم والوجه إلى ثلاث مجموعات كالآتي:

١) الجنس الأثيوبي بأشكاله النحيفة والمستطيلة.

٢) الجنس الأفريقي بشفتيه المنقلبتين وشعره المجعد.

٣) جنس البحر الأبيض المتوسط بأنفه الطويل والحاد والشفتين الرقيقتين.

ج/ مرحلة البقريات (Bovidienne)

كما سبق و أشرنا إليه في المرحلة السالفة الذكر فقد تمكن الإنسان القديم من تدجين و ترويض الحيوانات التي أدرك أنها أليفة عن طريق إستأناسها أولا بعد ملاحظة و دراسة طبائع الحيوان طبعا مدة من الزمن، (محمد، ١٩٦٥) و من بين أكثر هذه الحيوانات مشاهدة في الرسومات الصخرية نجد الأبقار التي جاءت في كثير من الأحيان على شكل قطعان منها ما هو في حالة كمين و منها ما هو للرعي، إلى هنا يتضح لنا مدى اهتمام الإنسان الماهر بالحياة الاجتماعية، بحيث طغت مشاهد رعي الأبقار و كذا صيدها على هاته المرحلة التي استمدت في الأخير تسميتها منها.

إن النقوش الجمة التي توصل إليها علماء الآثار و التي جسدت كما قلنا قطعان الأبقار المختلفة الأنواع إلى جانب الأشخاص ذوي البشرة السوداء (الزنوج) الذين صوروا جنبا إلى جنب في بعض المشاهد مع أفراد من ذوي البشرة البيضاء ما هي إلا دليل آخر على التعايش الاجتماعي و التنوع الثقافي الذي ساد المنطقة في وقت متأخر خاصة ما تمثله المشاهد المكتشفة بمنطقة "صيفار" و المجموعة المعروفة باسم "إهرير تاهيلاهي" و التي تعتبر كدليل آخر على العلاقة التواصلية ما بين مناطق الشمال و الجنوب.(Alfred, 1983)

د/ مرحلة الخيول (Caballine)

يبدو جليا في هاته المرحلة التأثير الكبير الذي لعبته العوامل الطبيعية و على رأسها الجفاف في اندثار الثروة الحيوانية و مدى تأثيرها على الحياة المعيشية للإنسان القديم خاصة و أن هاته المرحلة قد غطت بشكل كبير فترة نهاية العصر الحجري الحديث، و يبدو لنا أيضا من خلال المكتشفات التاريخية التي تمثلها الفنون الصخرية على وجه الخصوص التحول الكبير الذي طرأ على الشمال الإفريقي بصفة عامة و الجزائر خصوصا و ذلك بدخول الحصان؛ الحيوان الذي لم توجد له تشكيلات فنية من قبل بالمنطقة.

لقد أكد المؤرخون هذا الأمر بقولهم أن الحصان دخل أولا إلى الشمال الأفريقي عن طريق ليبيا و منه عرف طريقه إلى الصحراء الجزائرية أين عثر على نقوش صخرية لأنماط مختلفة من الحصان منها ما هو متوحش و منها ما دُجن، و هو تؤكده الرسوم المختلفة لأحصنة تجر العربات التي توحي بأن راكبيها من المحاربين جسدت معظمها على الصخور البركانية و الكتل الصخرية المسطحة. (Raymond, 1954)

مما يميز هذه المرحلة كذلك استغناء الإنسان البدائي عن استعمال الأقواس و الرماح و مختلف أدوات الصيد الأخرى و استبدالها بالأبواق و كذا أطقم الخيول التي تجر عربات ثنائية العجلات بحيث تبدو في حركة سريعة مما يعطيها ديناميكية الطيران و قد لونت في معظم التشكيلات الفنية بالألوان الترابية (المغرة) التي تعبر عن واقع المنطقة، في حين تجدر الإشارة هنا إلى ما جاء به المفكر و الأديب "علي فهمي خشيم" في نصه المترجم على أن الإغريق قد عرفوا استعمال العربات الحربية التي ترجها الأحصنة من شعوب الشمال الأفريقي و يقصد بها سكان ليبيا. (خشيم، ١٩٦٧)

تميزت أيضا رسومات هذه المرحلة بتغيير في طريقة تصوير جسم الإنسان وكذا لباسه الذي بدا متغيرا وهو ما يدل على تطور الإنسان واكتشافاته المذهلة لمحيطه وتوظيفها فيما يخص حياته اليومية بشكل دقيق، وقد جاء لباسهم ضيقا على مستوى الخصر ومتسعا في الأسفل فيما يشبه إلى حد كبير شكل الجرس، وقد جاءت الأشكال المرسومة مصقولة السطح في بعض الجوانب منها وفي جانب أخر استخدمت تقنية التنقيط، وأصبحت أجسام الإنسان عبارة عن مثلثين متقابلين ذات رؤوس مستديرة.

هـ/ مرحلة الجمال (Cameline)

أعتبر الجمل منذ القدم سفينة للصحراء نظرا لتأقلمه مع الوسط الذي نشأ فيه(الصحراء) وفي هذه المرحلة جاءت الرسوم خالية من الدقة من حيث الخطوط والأشكال والألوان، وقد شكلت الجمال موضوعا أساسيا في النقوش الموجودة على الصخور و جاءت الأشكال ذات قياسات صغيرة مقارنة مع باقي المراحل.(Benchelah, 2000)

حافظ الإنسان القديم في هذه المرحلة على طريقة تشكيل جسم الإنسان وإعطاءه جمالية ثابتة برسمه عن طريق "مثلثين متقابلين" إلى جانب الأقواس ومختلف الأسلحة مثل الرماح وكذا السكين المتدلية من على جانب خصر الإنسان،وجاءت الأشكال الحيوانية اقل حيوية وحركة عن سابقتها وهو ما مثل ما يمكن أن نطلق عليه مرحلة الانحطاط في النقش على الصخور وكذا جوانب الكهوف و بعبارة أخرى تعتبر هذه النقوش بمثابة آخر مرحلة للفن الصخري بالمنطقة. (Alfred, L'art préhistorique des massifs centraux sahariens, 1986)

ثالثا: تحف فنية من الحضارة الرومانية:

خلفت الحضارات المتعاقبة بالجزائر أثارا فنية واضحة توحي للعيان مدى التطور الكبير الذي شهدته المنطقة؛ خاصة ما تعلق بفرع التصوير بوصفه مجال وظيفي جمالي الأمر الذي نلمسه خصوصا في فن العمارة و كل ما له علاقة بالفنون التطبيقية، بحيث تعتبر الشواهد الفنية الأثرية المختلفة و المترامية على مساحات الوطن ككل بالإضافة الى القطع الأثرية التي تحفل بها المتاحف العمومية خير دليل على براعة ساكنة الجزائر السابقين بدءا بالساميين المعروفين بالفينيقيين ووصولا عند الرومان الذين أتقنوا بجدارة كل ما له علاقة بالحرف التقليدية و الفنون.

يبدو أن اهتمام الرومان بمجال الفن من أقدم الصناعات التي عرفوها خاصة أنه قد عرف عليهم جمع التحف الفنية التي استنزفوها خصوصا من معبد "دلفي"، حيث قام الإمبراطور "هادريان" و قائده "جايوس فيرس" بجمع مختلف القطع الفنية الرخامية منها و التراثية لتستعمل في زينة المساحات و منها ما بيع لتجار الآثار وكان الغرض منها تمجيد و تعظيم سلطة الإمبراطورية الرومانية و هو نفس الأمر الذي ينطبق على ما سار عليه الرومان أثناء استيلائهم على شمال إفريقية لكن تأثيراته كانت مغايرة بالجزائر و هذا ما سنلمحه من خلال الجوانب الجمالية في الفن الروماني تاليا.

١/ العمارة:

لقد طور الفنانون الرومان من أساليبهم و مستولى الإبداع في أعمالهم الفنية و هو ما نلاحظه جليا في مجالات :الفسيفساء، العمارة، النحت، و التي سعى من خلالها إلى تمجيد الإمبراطورية الرومانية عن طريق أعمال فنية غاية في الجمال كانت بداياتها مقتضبة من الفن الإغريقي القديم، حيث جاءت التماثيل المنتشرة على الفوروم(**Forum**) و واجهات المباني المختلفة و كذا المساحات أكثر واقعية منها في فن التصوير الإغريقي، معبرة بذلك عن الطبيعة و الواقع في بعد شبه تام عن التكلف و سريالية التجسيد ماعدا ما تعلق ببعض الشعائر و الطقوس.

فالمعالم الأثرية الرومانية المترامية عبر القطر الوطني ترسخ أحد أهم المراحل التاريخية و أسمى الحضارات التي شهدها شمال إفريقيا و هنا نتحدث أساسا حول مخلفات الفنون الكبرى من نحت و عمارة، هاته الأخيرة التي شهدت تطورا ملحوظا و هندسة فائقة خلال الحقبة الرومانية ما نستشهد عليه بجملة من المباني الدنوية و الدينية آنذاك التي ساهم في تطورها توفر المواد الأولية و مختلف الخامات مضافا إليها

موهبة الصناع و براعة المهندسين، و تعد كل من ولايات :تيبازة، تيارت، سطيف، قالمة، عنابة، سكيكدة، تبسة، باتنة من أهم المحطات الأثرية خاصة في مجال العمارة.

اتخذت العمارة في العهد الروماني أشكالا عدة عبرت عن الحاجيات المادية و المعتقدات و مختلف الأفكار و لهذا فقد أوجدت نماذج عدة لفن العمارة آنذاك نلخصها فيما يلي: الفوروم_ المسارح المدرجة_ المعابد_ الحمامات_ أقواس النصر_ المعاصر_ المنازل(الديوان)_ المقابر_ البازيليكا_ القصور_ الحدائق، وقد تميزت كل هاته العمائر بالزخرفة و النقوش البارزة و الغائرة لتحليتها و هو ما زاد الطراز المعماري الروماني قيمة جمالية استمدت قوامها من خبرات المهندسين و التجارب المعمارية السابقة خاصة لدى الإغريق الذين طوروا عنهم الأعمدة و مختلف التيجان و الدعائم الصخرية و الرخامية على حد سواء.

يعد قوس "تراجان" (١٩٣/٢١١م) و الذي بني في عهد الإمبراطور "سبتيم" من أجمال المعالم الرومانية المحترمة في المنطقة خاصة في ضوء أعمال الترميم الدقيقة، حيث بدأ العمل عليه على يد بعثة إيطالية سنة ١٩١٤م، و قد شيد فوق الطريق القديمة لـ"دوكيانوس" الخاصة بمرور العربات و هو ما تدل عليه آثار عجلاتها على الحجارة المستخدمة في تبليط الأرضية، (محمد ت.، ١٩٨٢) و في وقت سابق كانت توضع على سطحه تماثيل يزينها على الجوانب عمودان من الرخام الوردي بينما وضعت تماثيل تجسد الأباطرة آنذاك في نظرة توحي بتمجيد و تقديس الإمبراطورية الرومانية، و تجدر الإشارة هنا إلى أن ما هو قائم من هذا القوس ما هو إلا جزء بسيط من القوس ككل الذي يفترض أن له أربع واجهات ما تدل عليه قاعدته السفلية.

اجتاز فن العمارة الروماني أشواطا كبيرة من حيث التصميم و كذا الاهتمام بالمباني الدنيوية عن الدينية خصوصا و أنه قد استلهم عدة أنماط من البناء عن عدة حضارات نذكر منها ذلك التأثر الطفيف في توظيف المواد و منه تخلي المهندسين الرومان عن الخرسانة و الطوب و تعويضهما بالحجارة الضخمة و هو النمط المستمد من الحضارة الفرعونية، أما الأعمدة فقد أضفى عليها المصورون الرومان صبغة تركيبية بحيث نجد أن الشكل الخارجي للتيجان قد جمع بين الزخرفة الحلزونية للتاج الأيوني و الزخرفة النباتية للتاج الكورنتي، بينما جاؤوا بنمط جديد من خلال التعديل على العمود الدوري الذي أصبح قطره أقل و بقاعدة سفلية و تاجه أصغر أصطلح عليه العمود التوسكاني. (حجلة، ٢٠١١)

٢/ النحت:

يعرف أيضا بفن التمثال، واحد من الفنون القديمة التي اشتهرت بها الحضارات القديمة فعبروا من خلاله عن تاريخهم و مختلف الأفكار الدينية و السياسية و هو أحد الفنون المرئية التشكيلية التي تتعامل مع الكتلة و الفراغ و الأجسام؛ ما يميزه عن فن التصوير ثنائي الأبعاد بحيث تؤول الكتل الملموسة فيه إلى مجسمات بتفاصيل متباينة و هو ما يعطيه خاصية شغل حيز في الفضاء فيستشعر المتلقي متعة جمالية بصريا و حسيا من خلال ملامسته لأسطح المجسمات المختلفة الخامات، و قد أبدع الرومان في هذا النوع من الفنون التي نلمس منها الكثير من التحف الفنية الأثرية داخل الوطن.

نعرج هنا إلى أحد أهم التحف الفنية و المعروضة بمتحف مدينة شرشال(تيبازة) والتي تمثل أحد نواحي الإبداع في فن التصوير المقتبس عن ما جاءت به الحضارة اليونانية من حيث تقنية الانجاز؛ ألا و هو تمثال آلهة الصيد و القمر "ديان" المكتشف سنة ١٨٨٨م أثناء عمليات الحفر بأحد الملكيات السابقة لـ"غريغوري"، و تعرف (ديان) أيضا باسم "أرتميس" ابنة ملك الآلهة "زيوس" و كذا أخت التوأم "أبولون"، أما عن وصفها كعمل فني فقد جاءت على هيئة صيادة و هذا ما يتجلى من خلال عتادها من

قوس وسهام بحيث عكست مظاهر قوتها و زادت أنوثتها صلابة خامة الرخام المعرق بالأحمر و الأصفر. (هيون، ٢٠١٣)

جاءتنا كذلك أمثلة أخرى عن المنحوتات الجميلة بالمدينة الأثرية القديمة "تاموقادي" (باتنة) بحيث يلاحظ زوار المتحف عددا معتبرا من المجسمات تعبر في مجملها عن تماثيل تخص الإله "ساتورن"، و تترامى بالساحة عدة توابيت صخرية عليها نقوش و تصاوير تمثل أصحابها و تحاكي مآثرهم لتشكل لنا هاته المجموعات الفنية إرثا ماديا لا يقدر بثمن يروي تفاصيل أحد أهم الحضارات السابقة بالمنطقة خصوصا و الجزائر عموما؛ كان معظم مهندسيها صناعا و حرفيين و فنانين و هو ما يتجلى من خلال المجسمات و اللوحات الصخرية المختلفة.

إضافة إلى المنحوتات؛ نجد نماذج مختلفة للنقوش البارزة و الغائرة على النصب الجنائزية خصوصا و التي تتواجد بكثرة في الناحية الشرقية للوطن و نعطي أمثلة عن ذلك بمجموعة الأنصاب المتواجدة بالمدينة الرومانية "بونيه" (عنابة)، أين وجدت شواهد صخرية تمثل الآلهة "تانيت" في أوضاع مختلفة جنبا إلى جنب مع نصب أخرى منها ما حمل نقوشا لأسلحة أو مجموعة من الحيوانات خاصة منها، الثور، الكبش، الدلافين، (غانم، ٢٠٠٦) و التي كانت لها مدلولاتها الخاصة و تتعلق بطبيعة الحال بحياة صاحب القبر، نشير هنا أيضا إلى الإهمال شبه التام الذي تعانيه هذه النماذج في ظل نقص الاهتمام من طرف الجهات الوصية و كذا عوامل التجارة الغير شرعية للآثار، و التنقيبات الغير شرعية التي ينجم عنها في كثير من الأحيان تهشيم القطع الأثرية و التخريب المتعمد.

تعدت كذلك الأعمال النحتية المجسمات و التماثيل لتشمل فئة الفنون التطبيقية و هذا ما نلمحه خلال معاينتنا لمختلف التشكيلات الفنية الوظيفية من زخرفة للأواني الفخارية عن طريق صور ذات ثلاثة أبعاد خاصة ما حملته الفوانيس و المصابيح الزيتية المختلفة الأشكال و الأحجام، حيث اختلفت تقنيات إخراجها سواء عن طريق القولبة أو النحت البارز و الغائر ما تختص به في معظم الأحيان المنتوجات الفنية الصخرية على مثيلتها الفخارية.

٣/ الفسيفساء:

لعل التدهور الكبير للمناطق الشرقية خصوصا بعد سلسلة الحروب الداخلية و ما تبعها من احتلال روماني لهاته المناطق الدور الكبير في بروز فن الفسيفساء و تطوره على مختلف الأصعدة في ظل الهجرة المتتابعة للصانعين الشرقيين خاصة منها الجزر الإغريقية نحو المملكة الرومانية، الأمر الذي دفع بالمهندسين الرومان للاحتكاك بهم و النهل من فيض هذا الفن الذي أعطوه فيما بعد صبغة رومانية بحتة من خلال تنوع تقنيات إنجازه، حيث شهد هذا النمط من الفنون تطورا مقصودا ما بين القرنين (٠١-٠٢م) و هو ما تعكسه الفترة التي حكم فيها "يوليوس قيصر" إيطاليا لتصبح بذلك من أهم مراكز صناعة الفسيفساء في عهد "أغسطس".

حفل التراث الجزائري الروماني كما أشرنا إليه سابقا بالعديد من أساليب التصوير المختلفة في الطراز الروماني؛ منها أيضا النقوش الصخرية أو ما يعرف بـ (Frescoe) بحيث تميزت و تفردت هاته الأخيرة في أدائها عن سابقتها باستعمال المنظور عن طريق توظيف الظلال و الأنوار لتعطي بعدا ثالثا في الصور المنقوشة، وقد أبان الصانعون الرومان قدرات فائقة في مراعاة النسب و القياسات التي صاحبها توظيف التدرج اللوني لقطع الفسيفساء ليخرج لنا عمله الفني في شكله النهائي المتناسق من جميع النواحي. (باقر، ٢٠١١)

و من أهم ورشات صناعة الفسيفساء بالجزائر نجد ثلاث مراكز هامة بالساحل من حيث الإنتاج الفني ألا و هي: شرشال(Jol Caesarea)، سكيكدة(Resicade)، عنابة(Hippo Regius)، أما المناطق الشرقية نجد كل من سطيف(Sitifis)، قسنطينة(Cirta)، تبسة (Theveste)، ووصولا إلى مدينة باتنة(Thamugadi)، حيث تميزت لوحات الفسيفساء بالمحطات المذكورة بتجسيدها مختلف الحياة اليومية في حين عبرت غالبيتها عن الواقع نلمح قلة قليلة منها قد حملت مشاهد أسطورية.

بالحديث عن هذا النمط من التصوير تستوقفنا أحد أهم اللوحات التصويرية و أكبرها من ناحية المساحة على المستوى الوطني و التي تقدر بحوالي ١١٢١ مترا مربعا، حيث اكتشفت الفسيفساء الموجودة بمتحف تيمقاد بباتنة و الغالب على الظن أنها كانت تغطي كامل مساحته بما في ذلك الجدران و الأرضية، و تعتبر واحدة من أربع و ثمانين من إجمالي ثمان وستين لوحة فسيفساء معروضة للزوار ميزتها خاصية الزخرفة النباتية التي تعتبر من أحد أهم مميزات فسيفساء شمال إفريقيا عن غيرها من الطرز الرومانية الأخرى.

إلى جانب هذه التحفة الفنية الهامة نجد واحدة من أروع و أندر الفسيفساء من حيث طريقة الانجاز و المكتشفة سنة ١٩٠٥م و قد حملت اسم "الوحوش البحرية" شكلت عن طريق قطع صغيرة من الحجارة مضافة إليها العجينة الزجاجية بمساحة إجمالية قاربت الأحد عشر مترا مربعا (٤,٢٥م×٢,٥م)، جسدت فصولها ثلاثة من الآلهة المائية تحملها وحوش بحرية بالإضافة إلى ثلاث أطفال ذوي أجنحة مدلولها "الأطفال الملائكة"، و نجد كذلك لوحة "آلهة البحر" السحرية التي تمتاز بملاحقة عين المشاهد أينما وقف في مكان عرضها و هو ما يستشعره المتلقي في إشارة الذي يقف مذهولا على مدى تطور الفن الروماني نحو سريالية الخداع البصري في التقنية المستعملة. (الجزائرية، ٢٠١٨)

نشاهد أيضا بالقاعة الجنوبية لمتحف تيمقاد لمسات سحرية أخرى لفن الفسيفساء حيث تشدنا لوحة "فينوس" التي تواجه الزوار على الجدار الغربي جنبا إلى جنب مع فسيفساء "فيلا دلفي" و "لوحة الأقنعة" على الجدار الشمالي، تمثل اللوحة "فينوس" و هي عارية في وضعية جلوس تبدو من خلالها راقدة على قنطور بحري ذو بنية جسدية ضخمة و تكسو وجهه لحية طويلة و فوق رأسه تاج من أغصان الزيتون على شكل دائري تمسكه "فينوس" بيمناها، بينما تمسك يسراها برداء وردي اللون و يمسكه من الناحية الأخرى القنطور البحري الذي يظهر بين أرجله كائنا بحريا أسطوريا آخر، في حين كان هناك شاب وراء فينوس يرمي ببصره نحوها في نظرة محيرة.

نعرج مرة أخرى إلى الأعمال الفنية التشكيلية بمتحف شرشال التي تأخذنا في رحلة عبر الزمن من خلال لوحات الفسيفساء المعروضة على جدرانه، فقد أظهرت الفسيفساء نماذج من الحياة اليومية و أخرى لمشاهد ميثولوجية تشد الناظر إليها من خلال تكويناتها المتناسقة و ألوانها المتناغمة خاصة في فسيفساء: "أوليس وعرائس البحر"، الأعمال الحقلية"، "الفاتنات الثلاث"، حيث جاءت جلها بتقنية الأوبوستسيلاتوم و شكلت أغلبيتها عن طريق خامة الرخام و الأحجار الكلسية و مكعبات من الفخار و كثيرها كان زجاجيا و هو ما أعطى الفسيفساء بعدها التقني و الفني الذي برع فيه المصور الروماني و أبان عن قدرات فائقة في تنميق الديكور الداخلي للمنازل و كذا بعض المناطق الحضرية الأخرى.

خاتمة:

من خلال تطرقنا لمختلف مخلفات الفنون البصرية القديمة باختصار وجب التنبيه هنا إلى أن هذا جزء صغير الموروث المادي داخل الوطن والذي توضح من خلاله مختلف التعاملات الاجتماعية عبر العديد من المراحل و الحضارات المتعاقبة بالجزائر أين تتجلى لنا قوة الالتحام و التجانس فيما بين الأفراد

و المحيط البيئي و تجارب تأريخية عن طريق جملة من الفنون المرئية التي حققت في الأخير غايتها بأسلوبية فائقة من حيث دلالة التعبير. و هو ما جعل منها إرثا ماديا بشقيه المنقوش والمرسوم، ويعتبر كذلك كثروة ثقافية تخلد مجموعة من الحضارات التي مرت ببلدنا وتطورت بمرور الزمن، وكذلك يعتبر كإرث لامادي بالنظر إلى رمزية الفئة البشرية التي قامت بتكوين إرث جماعي له مدلولاته بالمغرب القديم عموما والجزائر خاصة.

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية

١. إبراهيم العيد بشي، أهم مصادر تاريخ الطاسيلي-ناجر القديمة، دراسة مختصرة لأهم مصادر تاريخ منطقة تاسيلي-ناجر الحضاري القديم، دار هومة، ٢٠٠٩.

٢. أحمد عيساوي/مها عيساوي، تبسة؛ بوابة الشرق و أريج الحضارات إنساني، مجلة الفيصل، (المملكة العربية السعودية/دار الفيصل الثقافية)، العدد ٢٩٧، ربيع الأول٢٠٠١م.

٣. أطلق هذا الاسم على الرسوم الصخرية المكتشفة نسبة إلى مدينة بوعلام بولاية البيض.

٤. الصقار فؤاد محمد ، دراسات في الجغرافية البشرية، ط.٠١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥.

٥. ليلى فؤاد أبو حجلة، تاريخ الفن: النشوء و التطور، مكتبة المجتمع العربي للنشر و التوزيع، ط ٠١، عمان، الأردن، ٢٠١١.

٦. محمد تغليسية، دليل آثار و متحف تيمقاد، وزارة الثقافة، الجزائر، ١٩٨٢.

٧. هيرودوت، التواريخ، الكتاب الرابع، نصوص ليبية، تر: علي فهمي خشيم، منشورات دار الفكر، طرابلس- ليبيا، ١٩٦٧.

٨. بحرة نادية، محاولة تحليلية للفن الصخري بمنطقة أدمر، (الطاسيلي أجر - الصحراء الوسطى- الجزائر)، رسالة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥/٢٠٠٦.

٩. بوزيد لخضر، الأثر الديني في مشاهد الرسوم الصخرية لمنطقة الطاسيلي -أزجر-خلال مرحلة الرؤوس المستديرة ٨٠٠٠ق.م-٢٥٠٠ق.م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، قسم التاريخ، جامعة الجزائر٢، بوزريعة، ٢٠٠٩/٢٠١٠.

١٠. جراية محمد رشدي، الصحراء من خلال العصر الحجري الحديث ٦١٠٠ ق.م-١٠٠٠ ق.م، مذكرة ماجستير في التاريخ القديم،أشراف عبد العزيز بن لحرش، جامعة قسنطينة، ٢٠٠٧/٢٠٠٨.

١١. حفناوي بعلي، صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات و ظلال اللوحة و في الكتابات الغربية، دار اليازوري، عمان، ٢٠٠٨.

١٢. شنيتي، محمد البشير، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر.

١٣. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق للنشر المحدودة، ج ٠٢، ط ٠١، بيروت، ٢٠١١.

١٤. علي سلطاني، تبسة، مرشد عام "المتحف و المعالم الأثرية تبسة"، وزارة الثقافة، الجزائر، ١٩٩٤.

١٥. عيشة مرزاق هيون، كنوز متحف شرشال، المتحف الوطني شرشال، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠١٣.

١٦. محمد الصغير غانم، المعالم الحضارية في الشرق الجزائري: فترة فجر التاريخ، دار الهدى، عين مليلة، أم البواقي، ٢٠٠٦.

١٧. وكالة الأنباء الجزائرية، متحف تيمقاد بباتنة : فسيفساء نادرة على مساحة ١١٢١ متر مربع شاهدة على الثراء الأثري لتاموقادي، نشر بتاريخ: ٢٨ أوت ٢٠١٨، تاريخ الإطلاع : ١٧ أكتوبر ٢٠١٨:

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

Basil Davidson, les royaumes africains, éd. Time Inc., 1966.

Hachid Malika, « l'art rupestre du Tassili n Ajjer », Racines, N. 1, éd. Office du Parc National du Tassili, l' Algérie 2009.

Iliou Et G. Lefelver ,Cinq Stations De Gravures Rupestres De La Région De Bou-Semghoun (Monts des Ksours), Lybika ,Alger , tome 20, 1972 .

Lhote H. « Les Gravures Rupestres de l'Atlas Saharien. Monts des Ouled Naïl et Région de Djelfa ». Office du Parc National du Tassili, Alger, 1984.

Mauny Raymond, Gravures peintures et inscriptions de l Ouest Africain, éd. 1. F. A. N, Dakar ,1954.

Muzzolini Alfred, L'art préhistorique des massifs centraux sahariens, BAR International Séries, 1986.

Muzzolini Alfred, l'art rupestre du Sahara central, T. 1. 2, éd, laboratoire de pays du méditerranée occidental, 1983.

Rabhi, M., Aberkane, K., Bellahreche, H., Belkacemi S. ,Recherches Préhistoriques dans la Région de Amoura (Djelfa, Atlas Saharien oriental), Ikosim **5**, Association Algérienne pour la Sauvegarde et la Promotion du Patrimoine Archéologique, ٢٠١٦.

Anne-Catherine Benchelah, Fleurs du Sahara, Voyage ethnobotanique avec les Touaregs du Tasili, Paris, 2000.

http://www.aps.dz/culture/77893-musee-timgad-a-batna-une-mosaique-exceptionnelle-temoin-de-la-richesse-archeologique-de-thamugadi